



# التعليم الابتدائي في تونس... الى أين؟

ان الهدف من كتابة هذه الورقة هو تسليط الضوء على واقع التعليم الابتدائي في تونس ما بعد الثورة نظرا لما تم ايلأؤه من أهمية للإصلاحات في بعض القطاعات او تلبية بعض المطالب القطاعية، لكن وفي هذه الاثناء يظل قطاع التعليم وخاصة المرحلة الابتدائية من اخر اهتمامات صناع القرار... ومحاولة تقديم مقترح اصلاحات قد تحسن من واقع التعليم الابتدائي في تونس.

## I. التعليم الابتدائي في تونس: الواقع والآفاق...

في تونس منذ الاستقلال تم إيلاء اهتمام خاص لمجال التعليم حيث تم إقرار مجانية التعليم في مختلف مراحل له لكّل الذين هم في سنّ الدراسة، في حين نصّت الفقرة الثانية من المادة 28 من الاتفاقية الدولية لحقوق الطفل على ان هذه المجانية مقتصرة في ذلك على التعليم الابتدائي ولم يوسّعها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان إلا إلى التعليم الأساسي؛ كما تم إقرار الإلزامية من سن السادسة إلى السادسة عشرة وفي المقابل فقد اكتفت المنظومة الدولية بحصر هذه الإلزامية في التعليم الابتدائي، أي من سنّ السادسة إلى سنّ الثانية عشر.

هذا الاهتمام ليس وليد العدم، بل ان التشجيع على طلب العلم وتعميمه على كافة المناطق التونسية ولكل الفئات نابع من الايمان بأهمية التحصيل العلمي في الرقي الاجتماعي، حيث انه والى مدى بعيد لعب دورا جد مهم في التغيير الاجتماعي.

# التعليم الابتدائي

# في تونس

## 1- التعليم الابتدائي في تونس: لمحة عامة

اليوم ورغم تطور التجربة التعليمية التونسية لا يزال الاشكال حول مدى استجابة نظامنا التعليمي لمتطلبات ومتغيرات العصر ومقتضيات سوق الشغل مطروحا. هل يمكن ان تنسج تونس على الرغم من تطور نظامها التعليمي مقارنة ببعض الدول العربية والافريقية على منوال بعض الدول التي قدمت مثلا ناجحا في النظام التربوي في الوقت الذي يتحدث فيه البعض عن "مدرسة الغد" وعن «المدرسة الذكية» و التي بدأ العمل بها في بعض دول الجوار (مشروع "انجاز" بالمغرب).

● تمثل نسبة ميزانية وزارة التربية من ميزانية الدولة (14.9% حاليا). وكما تم الإشارة سابقا فإن المرحلة الابتدائية محل الاهتمام في هذه الورقة تمتد على 6 سنوات بداية من سن السادسة. وحسب احصائيات وزارة التربية لسنة 2013 فقد تم تسجيل 1014.8 ألف تلميذ لتبلغ بذلك نسبة التمدرس للفئات العمرية 6 سنوات أي الملتحقين بالسنة الأولى من التعليم الابتدائي (99.4%) أما نسبة التمدرس للفئات العمرية 6-11 سنة وهي الفئة العمرية لتلاميذ المرحلة الابتدائية (99% حاليا مقابل 97.3% في السنة الدراسية 2001-2002) كما تجدر الإشارة الى ان نسبة التحاق الفتيات بمقاعد الدراسة قد شهدت تطورا حيث بلغ نسبة 48.1%).

## 2- التعليم الابتدائي في تونس بين مطرقة المطالبة و سندان الاحقية

- رغم طفرة الحريات التي استفادت منها عديد المجالات في تونس منذ الثورة والتي أدت في مجملها الى إقرار تعديلات او مراجعة للأنظمة المعمول بها، فإن مجال التربية ظل محصورا ضمن اطار ضيق من المطالبة المهنية التي تتلخص في مجملها في المطالبة بمزيد من الحريات و الامتيازات دون مراعاة مصلحة التلميذ أو الولي. في الاثناء لم يتم إقرار أي خطوة نحو مراجعة وتقييم واصلاح المنظومة التعليمية في تونس. لعل هذا ما يتضح خاصة من خلال الإضرابات التي شهدتها المدارس الابتدائية و عزوف الإطارات التربوية و تلويح الطرف النقابي بتأخير العودة المدرسية لسنة 2014-2015.
- مبادرة الحوار المجتمعي حول الشأن التربوي: تم اطلاق مبادرة الحوار المجتمعي حول الشأن التربوي التي لم تتفعل بعد ، و التي تم التعويل عليها لإيجاد فضاء محايد يجمع كل الاطراف المعنية التي رغم اختلاف وجهات النظر و الآراء تضع مصلحة التعليم كأولوية للحوار، بعيدا عن المطالبة المهنية و التجاذبات السياسية للمرحلة الراهنة. دون اقصاء اي طرف كان سواء من الاطر التربوية او المجتمع المدني او النقابات او الخبراء في المجال و التشديد على تشريك الولي و التلميذ في مداولات عمل الحوار مع الاخذ بعين الاعتبار التفاوت الحاصل بين الجهات. الهدف من هذه المبادرة هو ايجاد خارطة طريق تقدم تشخيصا دقيقا لواقع التعليم و ايجاد السبل الكفيلة بتطوير مستوى التربية و ضمان مصلحة التلميذ.

## II\_مشاكل التعليم في تونس:

### 1\_الرسوب والتسرب المدرسي في المرحلة الابتدائية.

رغم تحسن نسب النجاح في المرحلة الابتدائية: والتي بلغت في جوان 2011 نسبة 91.7% الا ان القراءة في احصائيات الرسوب والتسرب في مرحلة الابتدائي تعكس الى مدى بعيد عجز النظام التربوي ومحدودية فعاليته، حيث ورغم تراجع نسبة الرسوب التي بلغت 7.3% فإن نسبه المنقطعين سنة 2012 قد قدرت ب 0.8%. المشكل المطروح في هذا الصدد هو عن مستقبل التلاميذ المنقطعين في هذه المرحلة حيث انه لا يوجد تكوين مختص للمنقطعين في هذه المرحلة. حيث ان الادمج في التكوين المهني خاص بالمنقطعين عن التعليم بداية من السنة التاسعة اساسي ( و هو هيكل تكويني حكومي يتيح تكويننا مهنيًا للتلاميذ للحصول على شهادة تأهيل في احد المجالات المهنية و الذي يستقطب التلاميذ الذين انهوا المرحلة الأساسية أي السنة التاسعة اساسي ....). كما يظل الانقطاع خاصة في المناطق الداخلية أكثر تفشيًا. وبالقراءة في نسب الانقطاع و تفاوتها حسب الجهات يمكن ملاحظة ان ولاية القيروان تصدر الترتيب من حيث نسب الانقطاع ب 2.6 تليها القصرين ب 2.2 .

ورغم تعدد التحليلات والتأويلات لأسباب هذه الظاهرة (على غرار الدراسة التي اجراها المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية سنة 2014) فيمكن انطلاقًا من قراءة التقارير و التحليلات المختلفة الاستنتاج ان الاسباب الرئيسية للانقطاع سواء الطوعي او القسري عائدة لأسباب مرتبطة بالمنظومة التربوية ككل وأخرى مرتبطة بالمحيط الاسري و الاجتماعي. ولعل الأرجح ان المسبب الأول للانقطاع المدرسي هو خاصة المشكل التنموي في هذه الجهات و مشكل تفشي الفقر و البطالة. حيث ان الكثير من الأبناء يكون لهم الخيار في الانقطاع عن صفوف الدراسة و إيجاد موطن شغل لإعالة الأسرة أو نظرا لمشقة الالتحاق بالمدرسة يوميا، إضافة الى تراجع الثقة في دور التحصيل العلمي في الرقي الاجتماعي و إمكانية إيجاد موطن شغل اعتمادا على المستوى التعليمي.

## 2\_العلاقة بين الولي والإطار التربوي

انطلاقا من المقابلات التي تم اجراؤها يمكن القول ان العلاقة بين الولي والمعلم اتسمت في اغلب الأحيان بالتوتر. فالولي عموما في المدارس العمومية و خاصة في الاحياء الشعبية يتهم المعلم بالتقصير وعدم القدرة على ترغيب التلميذ في طلب العلم -حيث يقول احد الاولياء ان ابنه و رغم انه من انجب التلاميذ الا انه يعزف و بشدة عن الذهاب إلى المدرسة و يعرب عن كرهه للمدرسة و الإطار التربوي-. وقللة الخبرة - الا في بعض الأحيان- التي تقتضي اللجوء الى الدروس الخصوصية و ظلم المعاملة في حالة الرفض او عدم القدرة على ذلك. ومن جانب المعلم فقد رفض ان يكون تراجع مستوى التكوين رهين تقصير من المعلم بل بالتقصير في الاهتمام بالابن وبالتدخل في التمشي البيداغوجي لسير الدروس. كما علل الاطار التربوي عدم القدرة أحيانا على إيلاء كل التلاميذ الوقت اللازم للشرح و التفسير داخل القسم بمشكل الاكتظاظ داخل الفضاء التربوي. و بالعودة الى احصائيات وزارة التربية يتضح لنا ان معدل عدد التلاميذ بالمؤسسة الواحدة 224 و معدل عدد التلاميذ بالفصل الواحد يصل الى 21.9 حاليا .

## 3\_مستوى البنى التحتية والتجهيز:

الرفاه البيداغوجي هو ما يقصد بتأهيل البنى الأساسية في المدارس و الفضاء المدرسي و تحسين ظروف الدراسة لكن العديد من المدارس اليوم تفتقر الى وجود المرافق الصحية والفضاءات الترفيهية و الربط بالانترنت حيث ان نسبة توفر هذه الخدمة في الفضاءات المدرسية لم تتجاوز ال 39 % و ترد اقل النسب بولايات القيروان و القصرين و سيدي بوزيد بنسب تتراوح بين 9.3 و 14.5 %). بل نجد اليوم نقصا في بعض الجهات في تزويد المدارس بالماء الصالح للشرب 90% من المدارس لها ربط بشبكة المياه.

توزيع المسافة يقدر معدل المسافة بين مقر السكن و المدرسة تقدر نسبة التلاميذ ممن يقطعون اكثر من 3 كلم للاتحاق بالمدرسة 12.3% و تسجل اكبر نسبة في ولاية سليانة و القيروان نسبي 32 و 26.5%. و نظرا لبعدها المشافة الفاصلة بين البيت و المدرسة فقد تم بعد الاستقلال بعث المطاعم المدرسية و هي قاعات للافطار يتم فيها توزيع وجبة الفطور و الغذاء على التلاميذ خاصة في المناطق الريفية و في الأوساط المعوزة. لكن اليوم و نظرا لوفر مواصلات النقل فقد تم الاستغناء عن اغلبها. فيما يظل 69.5 % من التلاميذ في ولاية الكاف يتمتعون الى اليوم بهذه الخدمة الى اليوم و هي اكبر نسبة مسجلة في الجمهورية .

ان القراءة فيما تعرضنا اليه من احصائيات تبرز وجود علاقة سببية بين النقائص و مخرجات العملية التربوية حيث تمت ملاحظة عديد النقائص و الفروق في مظاهر المساواة في الخدمة التعليمية و الذي يرتبط الى حد كبير بالفشل المدرسي و الانقطاع المبكر عن التعليم و الذي تمت ملاحظته في نفس الولايات ( القيروان والقصرين و سيدي بوزيد و سليانة) هذه الولايات هي الأقل حظا من حيث التهيئة و تنمية مرافقها المدرسية و الأكبر من حيث عدد الراسبين و المنقطعين. و هو ما يؤكد ضرورة وضع مشروع تنموي شامل في هذه الجهات من ضمنه التعليم.



### III\_التشغيل على حساب الجودة في التعليم

ليس من الخفي ان اكبر المشاكل وأكثرها تفاقما ما بعد الثورة و اكثرها مطلبية هو مشكل التشغيل حيث قدر المعهد الوطني للإحصاء نسبة العاطلين عن العمل بما يقارب 609.9 ألف 242.3 الف منهم من أصحاب الشهادات العليا. \*

ونظرا للمطالب المتزايدة بخلق مواطن شغل، فإن القائمين على الشأن من وزارة تشغيل او من السياسيين قد كانت لهم عديد محاولات لامتناس وتقليص هذه النسب. في هذا الصدد نذكر فتح عديد المناظرات منها في مجال التربية.

هذه النقطة تبدو كما لو أنها محل نقد وتضعنا هنا امام عديد التساؤلات. فالقائم على الشأن التربوي أو السياسي هو أمام أحد الخيارين التاليين: إما أن يتم التضحية بالمستوى التكويني وجودة التعليم على حساب محاولة استيعاب البطالة أو عدم الرضوخ للضغوط المطالبة بخلق مواطن شغل على حساب مصلحة التلميذ ومستوى تكوينه. حيث ان الالتحاق بسلك المعلمين يتم بعد الخضوع لمناظرة انتداب مباشرة لخريجي التعليم العالي. مع الإشارة إلى أنه بعد الثورة أصبح الالتحاق بالمناظرات راضخا لعديد الشروط الجديدة وتتمثل أهمها في احتساب نقاط التأهيل أو مجموع نقاط المترشح والتي تتحدد بحسب سنوات البطالة (الأفضلية لمن لهم سنوات بطالة أكثر) الزواج، عدد الأطفال، عدد أطراف العائلة، عدد العاطلين عن العمل في العائلة، العمر... مع العلم ان انتداب المعلمين في الماضي كان يتم عبر اليات اكثر "صرامة" و بعد فتح مناظرة لاختيار الطلبة الذين تخول لهم نتائجهم الالتحاق بالتكوين في دار المعلمين العليا و هو هيكل تكويني مختص في تكوين المعلمين يتلقون خلاله التكوين البيداغوجي و المنهجي اللازم الذي يخول لهم تدريس الناشئة و إنجاز العملية التعليمية.

هنا نجد أنفسنا أمام مفارقة خطيرة: كيف يمكن لعاطل عن العمل منذ سنوات عدة والذي قد يكون مفتقرا للخبرة أن يؤمن مستقبل الناشئة وأن يكون مكونا (معلما) و الحال أن عديد المواد تتطلب مداومة و اطلاعا مستمرا كما أن بيداغوجيا و طرائق التعليم عادة ما تتطلب الدراية الكبيرة و الإمام ببيكولوجيا الطفل و الحنكة في التعامل و القدرة على الترغيب في طلب العلم و الالتحاق بمقاعد الدراسة. ولعل هذا ما قد يفسر التقصير الذي اتهم به بعض المعلمين فيما سبق خلال اجراء المقابلات. هذا ما يبرز وبكل وضوح ان الملف التربوي لا يعد أحد أولويات الفاعلين أو صناع القرار في تونس حتى ما بعد الثورة. رغم بعض المحاولات الساعية الى بحث سب للإصلاح التي قد تكون كفيلة بتغيير الوضع المتردي والذي يزداد ترديا للواقع التعليمي (نذكر من ذلك الحوار المجتمعي حول الشأن التربوي و الذي تم اطلاقه و تعطيل سيره و عدم تفعيل عمل لجانه رغم المحاولة الجاهدة لتشريك كل الأطراف من مجتمع مدني و هياكل و وزارات معنية ....)

#### IV\_التوصيات:

##### 1- على المستوى الجهوي:

- مراجعة فورية و عاجلة للمنشآت التربوية في المناطق الداخلية و تعميم مبدأ الرفاه البيداغوجي و توفير ضروريات إنجاز العملية التعليمية و ضمان التكافؤ في التكوين و في النتائج:
- توفير بيئة تشجع على طلب العلم مع الاخذ بعين الاعتبار متغيرات البيئة المناخية والمنطقة الجغرافية وصيانة المدارس و توفير المرافق الضرورية بها على غرار التنسيق مع وزارة الفلاحة لتزويد المدارس بالماء الصالح للشرب في المناطق الريفية و التنسيق مع وزارة الداخلية لتأمين المدارس الحدودية.
- تجهيز قاعة إعلامية في كل مدرسة و ذلك لتقليص الامية التكنولوجية لدى أبناء المناطق الداخلية و لتقليص التفاضل بين تلاميذ المدارس الخاصة و العامة و أبناء المدارس في المناطق الداخلية. و لتقليص العقبة المادية امام الوزارة المشرفة يمكن التبرع بالاجهزة القديمة للادارات التونسية و التي يتم استبدالها بأخرى حديثة.
- المساواة بين أبناء الجهات الداخلية و بقية المناطق في حظوظ التعليم و هذا ما يتطلب التنسيق مع القائمين على الشأن التنموي و الشؤون الاجتماعية: ضرورة إيجاد حلول بديلة للاسر محدودة الدخل و الذي من شأنه تقليص نسبة الانقطاع المدرسي لأسباب اسرية و اجتماعية. على غرار منح الطلبة اقتراح منحة مدرسية للتلاميذ من الاسر محدودة الدخل، توفير نقل و سكن مدرسي مجاني بالإضافة الى المساعدات المدرسية التي تسند في بداية السنة الدراسية.

##### 2- على المستوى البيداغوجي:

- مراجعة الانتدابات في مجال التعليم و بعث هيكل تكويني خاص بالمعلمين يتم خلاله تكوينهم تكويناً مختصاً و ليس على أساس المناظرات.
- تشديد الرقابة على الدروس الخصوصية و تعويضها بدروس دعم مجانية داخل الفضاء المدرسي.
- مراجعة توزيع الدروس وعدد ساعات التدريس و الاخذ بعين الاعتبار عدد الكتب و طاقة احتمال و قدرة التركيز لدى التلاميذ في هذه السن و داخل المناطق التي تتطلب التنقل لمسافة طويلة للاتحاق بالمدرسة.
- بعث بيداغوجيا تدريس بديلة قائمة على المشاركة في بناء الدرس والحوار داخل الفضاء المدرسي.
- ضرورة التشجيع على بعث وتوفير نوادي ترفيهية و علمية تنمي مهارات التلاميذ و قدرته على التواصل و تحفز التلميذ على قضاء اكبر وقت ممكن داخل الفضاء المدرسي و للحث على الالتحاق بعث دورات تأهيلية و تكوينية لفائدة المعلمين خاصة في مجال علم النفس الطفل وطرائق التدريس من اجل مزيد تحسين قدرتهم على إيصال المعلومة و حسن التعامل مع التلميذ.

### 3- على المستوى "المركزي" والوطني:

- التعجيل بانطلاق اعمال الحوار المجتمعي حول الشأن التربوي والحرص على:
- ان تكون غاية الحوار الوحيدة الحوار تطوير وتحسين مستوى التعليم الابتدائي في تونس فقط.
- ان يتم اشراك جميع الاطراف المعنية بالعملية التربوية دون اقصاء
- ان تلتزم كل الاطراف بتنفيذ مخرجات الحوار.
- العناية بتقييم العملية التربوية وتقييم الاصلاحات
- وضع مؤسسة تعديليه للتعليم أسوة بالمؤسسات التعديلية الاخرى، مثل المجلس الوطني للتربية من اجل الحفاظ على حيادية المرفق التربوي.

ختاما ان المرحلة الابتدائية من التعليم تعتبر عماد التكوين للتلميذ في مسيرته التعليمية و في تكوينه و احد عناصر التنشئة الاجتماعية لما يقضيه الطفل في هذا السن من وقت داخل الفضاء التربوي. و نظرا لأهمية هذه المرحلة العمرية من حيث تكوين الطفل الشخصي و البيداغوجي، تظل مراجعة الطرق التعليمية و إعادة النظر في الملف التربوي للمرحلة الابتدائية غاية ملحة اليوم في تونس، يتوجب عنها ترك الخلافات المطالبية و التجاذبات السياسية جانبا و العمل فقط على تحسين هذا الوضع خدمة لمصلحة التلميذ أولا و قبل كل شيء.